أدب شعبي

طبعة جديدة من كتابه المرجعي

أنيس فريحة... مؤرخ القرية اللبنانية ودرويشها؟

"انا درويش من قرية لبنانية". هكذا كان الكاتب واللغوي والباحث انيس فريحة (1902ـ1992) يعرف عن نفسه. رغم تبحره في قضايا العلم المتشعبة والمعقدة ونيله شهادات عدة، وتعليمه في كبريات الجامعات في لبنان خارجه، ظل يردد هذه العبارة

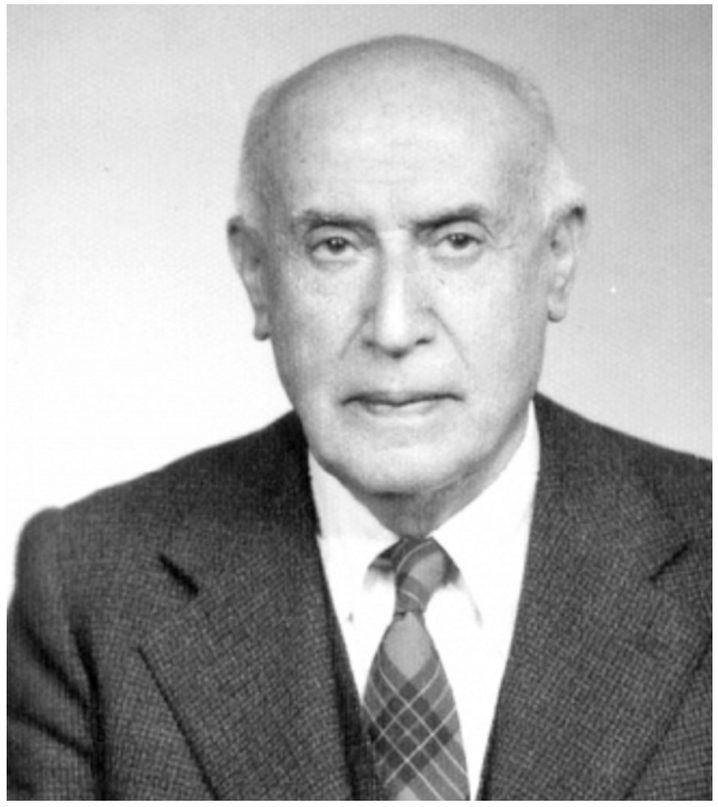

انيس فريحة.

من حيث يدري او لا يدري، اخذ الراحل انيس فريحة خصال القرويين ممن خلد حضارتهم وتقاليدهم وثقافتهم وطقوسهم، واحتفظ بالنفيس منها في شخصيته: الكد في العمل وبذل الذات حتى الرمق الاخير. على سرير مرضه، ظل اللغوي والعالم الانثروبولوجي والاديب والاستاذ في اللغات السامية يكتب ويبحث ويواصل حفرياته في اللغة والتاريخ حتى اغفاءته الاخيرة. طوى صاحب "اسمع يا رضا" سنواته التسعين، تاركا عددا مرجعيا من الاعمال والدراسات والمؤلفات والابحاث في اللغات والاساطير القديمة واللهجات، والامثال، والملاحم والفولكلور الريفي الذي طبع طفولته وصباه ـ ومشواره المهني لاحقا ـ في قريته رأس المتن في جبل لبنان.

اخيرا، عاد انيس فريحة الى الواجهة من خلال طبعة جديدة من كتابه المرجعي والاهم في سلسلة الاعمال التوثيقية للقرية اللبنانية. "القرية اللبنانية ـ حضارة في طريق الزوال" ("دار المكتبة الاهلية") الذي صدر عام 1970، توج انيس فريحة رائدا في حقل توثيقي قلما طرقه احد من قبله.

لعل كلمات الاديب والباحث والاكاديمي الراحل متري بولس (1937 ـ 2010) تعبر عنها بكل اكتمال العبارة، هو الذي قال: "اهمية انيس فريحة لا تقتصر على ارتباطه بقريته ووفائه لانتمائه. فهو بالاضافة الى ذلك، جعل القرية موضوع علمه. فما كان بالنسبة اليه نمط عيش واسلوب حياة، صار بكده وجهده حقل معرفة، واختصاص، ومثل وابداع. ما عاشه كان بالفطرة والسليقة، وعي الى مراقبة، ووصف، وتدوين، وتجربة، وافتراض، وبرهنة ثم اثبات... وهذه من صفات العالم، وسمات العلم. اتصاله بالقرية استمر طوال عمره. قدر له سكنى المدينة، والطواف في الافاق شرقا وغربا، الا ان العودة الى القرية كانت من ثوابت سلوكه، بل ان الانتماء الى القرية هو السمة الغالبة على عاطفته وفكره وتصرفه. يمكن القول ان انيس فريحة لم يبتعد عن القرية او يغترب، بل حمل القرية معه الى حل واينما رحل، هو الذي قال في مقدمة سيرته الذاتية "قبل ان انسى": انني رجل من عامة الناس. كنت دوما اقول عن نفسي اني درويش من قرية لبنانية".

اذا، لانيس فريحة تدين القرية اللبنانية استمرارها في الذاكرة والوجدان، بعدما دخلت فعلا طور الزوال في ظل العولمة والحداثة والاجتياح العمراني والتكنولوجي والعلمي لكل مفاصل حياتنا. باعماله وابحاثه ودراساته، شيد صاحب "معجم اسماء المدن والقرى اللبنانية" (1972) لنا قرية لبنانية نموذجية ستظل حية في وجداننا وذاكرتنا وشخصيتنا الجمعية التي ينحتها ذلك التراكم والتفاعل بين الماضي والحاضر.

ابن رأس المتن، كان فذا في كل شيء. بعدما اكمل تعليمه الابتدائي والثانوي في مدارس عدة منها "مدرسة اوليفر" والشويفات وسوق الغرب، دخل الجامعة الاميركية في بيروت حيث نال اجازة عام 1927 قبل ان يستكملها بشهادة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة شيكاغو، ثم اخرى في اللغات السامية في الجامعة نفسها. الى جانب عمله كاستاذ محاضر في عدد من الجامعات داخل لبنان وخارجه، اكب على رسالته الاهم: التوثيق والتنقيب في اللغة مثل اعماله "نحو لغة عربية ميسرة" و"معجم الالفاظ العامية في اللهجة اللبنانية وردها الى اصولها السامية" و"محاضرات في اللهجات والاساليب ودراستها" و"في اللغة العربية ومشكلاتها" و"اسماء الاشهر العربية وتفسير معانيها" و"الخط العربي ـ نشأته ومشكلاته"، وفي التاريخ مثل "دراسات في التاريخ" و"احيقار: حكيم من الشرق الادنى القديم" و"اثينا في عهد بركليس"، وفي الفلولكلور والتراث الشعبي مثل "معجم الالفاظ العامية" و"اسمع يا رضا"، وفي الملاحم كـ"ملاحم اوغاريت (ترجمة عن الاوغاريتية)" و"ملاحم واساطير"...

مع ذلك، تظل فرادة انيس فريحة في انه وثق للقرية وحضارتها وعادات اهلها وتقاليدهم وحقلهم المعرفي والمعجمي بعلم ودقة الاكاديمي بعدما كانت قصصا وروايات تتناقلها الاجيال شفهيا، ما هدد باندثارها التام وانقطاع ذلك الجسر ◄

نقطة على السطر

القرية اللبنانية... تلك المدرسة الخالدة

لا نكشف سرا اذا قلنا ان الحركة الثقافية الحديثة في لبنان صنعت في المدينة، واقترنت بها. في بيروت انتجت وتكونت وطبعت وراجت، مع ازدهار الصحافة وحركة النشر، والصناعة الثقافية عموما، وشبكات التوزيع، ومن هنا سافرت الى العرب والعالم. بل ان بيروت التي استحالت منذ الستينات عاصمة ثقافية عربية، استقطبت اكبر الكتاب والمبدعين العرب، مغربا ومشرقا وخليجا، وطبعت لهم وقدمت اعمالهم، واحتضنت نقاشاتهم ومنحتهم الشرعية واعادت تقديمهم الى العالم.

نعم، من المدينة طلعت المشاريع الثقافية الكبرى، والفرق المسرحية، والجماعات الابداعية، والمدارس التشكيلية، والموسيقية... وكانت العاصمة حضن الحداثة والمعاصرة والتجريب، هذا المختبر العربي للافكار والاشكال والقوالب والاساليب والمدارس على اختلافها، من الكلاسيكية الى الاكثر تمردا وتجاوزا.

لكن، يبدو دائما اننا، في لاوعينا الجماعي، نهرب من شيء ما، حين نتمسك باسطورة المدينة، ملاذا اخيرا، تشبثَ الغريق بخشبة الخلاص. نتناسى ان بيروت، وعلى الرغم من كل مكتسبات الحداثة التي ارادتها تارة "سويسرا الشرق"، وطورا "باريس العرب"، لم تنجح يوما في التخلص من صورتها كتجمع قرى نزحت الى المدينة، واحتفظ سكانها بالكثير من طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم السابقة، محافظين على علاقة وطيدة بالجذور، والمرجعيات القديمة.

ليس في الامر عيب ولا خطيئة اصلية، بل إنه ببساطة واقع ثقافي وانتروبولوجي ينبغي الاعتراف به والعيش معه، وفهمه، والانطلاق منه لصياغة المستقبل. فكما ان ابن القرية يتخلص من لهجته ومظاهره القروية، ليقلد اهل المدينة ويصبح منهم، هكذا يبدو اننا جماعيا نحاول ان نهرب من جزء اساسي غائر من ذواتنا. قل لي مما تهرب اقل لك من انت.

يكفي أن ندرس انجذاب اللبنانيين الى الاسطورة الرحبانية، الى القرية النموذجية التي قام عليها الفن الرحباني، الى اغنيات فيروز المسكونة بالمختار والعرزال والقرميد وضوء القمر، الى اللغة والمفردات والامثال والحكم والموضوعات، وتمجيد الخصال الحميدة كالطيبة والضيافة والجود والنخوة والفروسية، كي نفهم الوجه الخفي من الشخصية اللبنانية التي تضرب جذورها عميقا في هذا المكان الفاضل، القريب البعيد، وهو يبقى صنوا للصفاء والاصالة والهوية وتألق الروح. هذه المصالحة مع الوجه المخبأ، مع الجذور الخفية، وحدها الثقافة يمكن ان ترعاها وتشجع عليها. انه الحوار الداخلي، الباطني، الروحاني بين بعضنا والبعض الآخر ضمن الشخصية الوطنية الواحدة. من خلال رحلة العودة الى الينابيع التي تسمح بها الثقافة، ادبا ومسرحا ونقدا ورسما وسينما وموسيقى، الخ، سنكتشف ان القرية اللبنانية هي الرحم الذي خرج منه جزء اساسي من ادبنا وذاكرتنا.

نتناول في هذا العدد المشروع البحثي التوثيقي الخارق الذي تركه لنا انيس فريحة صاحب "اسمع يا رضا"، حول القرية اللبنانية. لكن يمكننا العودة ايضا الى سلام الراسي او لحد خاطر. ماذا لو اعدنا قراءة امين نخلة، او مارون عبود، او إميلي نصرالله...؟ والقائمة تطول. سنجد ان ادبنا الحديث، حتى المديني منه، والاكثر طليعية، جذوره ممتدة الى القرية اللبنانية. بصفتها مخزن الهوية الصافية، والاصول، والمرجعية، والابداع الصرف.

لا تخلو هذه القراءة من الرومنسية والحنين، لكنها واقعية وعلمية وموثقة. من حقنا ان نراهن على المدنية والتقدم والحداثة، لكن القرية ليست نقيض كل ذلك. ليست "تخلفا" كما يُخيّل الى البعض ويا للأسف ان بقيت هذه الفكرة المسبقة مخفية في الاعماق! الفولكلور ليس تهمة، ولا صورة كاريكاتورية مضحكة، بل منهلا كلاسيكيا للجماليات الكبرى.

مشروع التقدم سيبقى ناقصا او سطحيا او مزغولا، اذا لم يلتفت الى القرية اللبنانية، ويتصالح مع الجذور الريفية، ويوظفها ديناميكيا في رؤيا وطنية وعربية وكونية للتقدم والارتقاء.

سمير مراد

كتابه يعيدنا الى جذور حضارة ريفية آيلة الى الاندثار.

◄ الممتد الى الماضي في احد الايام.
لكن المميز انه فعل ذلك انطلاقا من انه عايش اجواء القرية وعجن بيومياتها. فهو ولد في "قرية نائية احتفظت بالطابع اللبناني القديم ونشأتُ في بيت فلاح عتيق، وعشت في القرية الى ان شببت، وقمت باعمال يقومون بها في القرية، ولعبت العابها، وعيدت اعيادها وسهرت سهراتها امام الموقد، وعلى السطيحة، فاصبح ما خبرته وسمعته وشعرت به جزءا من حياتي الروحية والعقلية".
حين نقول القرية اللبنانية، فان انيس فريحة يحددها لنا في مقدمة كتابه "القرية اللبنانية". اذ يشير الى ان "المتن، المتن الاعلى والمتن الشمالي بصورة عامة، يمثل لبنان القديم بجغرافيته وسكانه واجتماعياته واقتصادياته (...) واخترنا بلدتنا رأس المتن لانها لم تتأثر بعد بوقع الحضارة الغربية المجتاحة، بل تعيش الى حد كبير، في لبنان القديم: لبنان الاباء والحدود".

> **وثق العادات والتقاليد ومختلف الطقوس الاجتماعية في قريته**

طبعا، يشير هذا الاكاديمي الرصين الى ان كتابه ليس سوى مساهمة متواضعة ضمن الجهود الرامية الى توثيق الفولكلور اللبناني. فالدرس الشامل لهذا الفولكلور يستدعي - بحسب فريحة - تقسيمات جغرافية ودينية، "فتؤخذ قرى من ساحلية، قرى من الوسوط، وقرى اخرى من مناطق جبلية عالية (...) كذلك يحسن بجامع الفولكلور ان يأخذ السكان في اربع فئات: الموارنة، والروم الارثوذكس، والدروز، والمتاولة (الشيعة)، فيدرس المشترك ويدون ما يختلفون فيه". ويوضح في المقدمة منهجية عمله، فيشير الى "اننا لم نأخذ مدن لبنان في الاعتبار، لان مدن لبنان الساحلية لم تكن يوما من لبنان القديم: لبنان الجبل والقرية (...) وتحاشينا مدن الاصطياف الحديثة والقريبة من الساحل اللبناني كبحمدون (...) لان جو هذه القرى الاجتماعي والاقتصادي قد تبدل تبدلا محسوسا (...) لم نأخذ المسلمين في هذه الدراسات فولكلوريا، لانهم في نظرنا يختلفون فولكلوريا عن سكان لبنان القديم - النصارى والدروز - اختلافا بينا. لم يسكن المسلمون القرى وليس في حياتهم الاجتماعية او الاقتصادية ما يشبه الحياة القروية. احتفظ المسلمون بالساحل والمدن. وان كان في بعض القرى اللبنانية افراد مسلمون، فان عادات هؤلاء لا تختلف عن عادات جيرانهم من النصارى او الدروز".
في كل الاحوال، وضع فريحة الحجر الاساس بكتابه هذا الذي جمع بين معايشته وذكرياته الشخصية في القرية، وبين شهادات وروايات عجائز وكبار القرية بعد اجراء عملية تقاطع في المعلومات والذكريات. هكذا، سيعيدنا كتابه الى الزمن السعيد: الى الفضائل اللبنانية، وشهر ايلول، والزراعة، وتقاليد العرس، والموت والدفن، والولادة، والعديات والاقاصيص التي كانت تتلى للاطفال، والالعاب وطقوس الاعياد، والخرافات والمعتقدات ليختمه بـ "عقلية اللبناني كما تتراءى في فلولكلوره".
على هذه الدرب، سار انيس فريحة، ورسخ مكانته بصفته امين الفولكلور القروي، مُصدرا العديد من الكتب عن القرية وجذور اسمائها السامية وعاداتها وطقوسها الايلة الى الاندثار، مهموما بالقبض على قرية الطفولة والايام الخوالي. حتى ان كتابه "اسمع يا رضا" الذي بات لازمة في البرامج والاحاديث اليومية، هو استعادة للقرية وذكرياتها يقصها المؤلف على ابنه رضا، يوم "كنا نلعب بالوعر، في البورة، في الساحة... كنا حقا نلعب: بركبنا وسواعدنا وبصدورنا، وبحناجرنا (...) صدقني اذا قلت لك ان العابنا احسن من العابكم".
بعد عقود لاحقة، ستشكل اعمال انيس فريحة التوثيقية في الفولكلور مرجعا ونبعا لا ينضب بالنسبة الى الاعمال الادبية والعروض الفنية والسينمائية والمسرحية اللبنانية التي اتخذت من القرية وتيماتها موضوعا لها. وفي كل ما كتب ووثق والف، تميز انيس فريحة بذلك الاسلوب المشوق في الكتابة، ما اضفى حيوية وجزالة وسحرا خاصا على اعماله رغم رصانتها بحكم طبيعتها البحثية الجافة. بل انه اصدر اعمالا عن النكات مثل "في الفكاهة والنكتة" و"النكتة اللبنانية تتمة لحضارة حلوة". اعتبر هذا الانتروبولوجي الفطري ان النكتة ايضا مرآة لطبائع الشعوب وشخصيتها.

نصب تذكاري في مسقطه رأس المتن.

> **تميز باسلوب مشوق في الكتابة، ما اضفى حيوية وليونة على ابحاثه العلمية**

وفي كتابه "في الفكاهة والنكتة" تحديدا، صحح بعض المصطلحات التي خلطت بين النكتة والفكاهة والسخرية، خصوصا وان تعريفاتها في المعاجم العربية كانت ملتبسة. هكذا، اعاد تعريف الفكاهة، متوسعا في "اثرها في الخلق القومي. فالشعب الفكه ينظر الى الحياة نظرة تحررية، وينظر الى الكون نظرة رحبة شاملة"، مذكرا بالجاحظ الذي قال: "الجد مبغضة، والمزح محبة". طبعا، استهلم فريحة ايضا مضمون كتابه من القرية، والكهنة (بما يمثلونه من سلطة دينية واجتماعية) الذين يشكلون مصدرا للنكات في الثقافة الشعبية.
لاستكمال هذا التعمق في الثقافة القروية وحضارتها، عاد فريحة الى الينابيع، الى الجذور السريانية والكنعانية لاسماء القرى اللبنانية، وغاص في هذه البحار الواسعة، ليخرج باعمال مهمة مثل "اسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها"... الى جانب اهميته بالنسبة الى القرية اللبنانية، كان انيس فريحة من اوائل الذين نقلوا الملاحم القديمة من بلاد ما بين النهرين الى اللغة العربية، معبدا الطريق امام الباحثين، الى جانب بحوثه في اصل اللغة العربية واللغات السامية التي باتت من المراجع للعلماء والمنقبين.
قبل ثلاثة اعوام، وتحديدا في عام 2015، عاد انيس فريحة الى ملعب الطفولة الاول، اذ تجسد نصبا مرتفعا توسط ساحة بلدته رأس المتن، التي درس اسمها ايضا، عازيا اياه الى شكلها الذي هو بـ"صورة لسان ممدود على قمة". عاد ابن رأس المتن الى الاصل، الى تلك البلدة الذي خُلد ترابها واشجارها ومرابع طفولتها، في كُتب سيعود اليها كل باحث في اوراق الماضي، هو الذي قال: "اسمع يا رضا، ان في لبنان، هذا الجبل المقدس، قمة لعلها من اجمل قمم الله على الارض، هي ضيعتي رأس المتن".

س.م.